المبـــادئ التـــي كان غريماس يبنـــي عليـــهـــا السيميائية والنتائج المنهجية التي نجمت عنها

أ.د/ هايدي تويل (Heidi Toelle)
السربـــون/فرنســـــا
Université de la Sorbonne Nouvelle – Paris

في أواخر السبعينات نشر غريماس معجمه الأول للمصطلحات السيميائية1 الذي كان قد ألفه مع جوزيفكورتسJoseph Courtés)(والذي ترجم فيما بعد إلى الانجليزية والاسبانية والبرتغالية والذي لم ترجم إلى العربية بعد. وقد كتب غريماس في هذا المعجم: إن السيميائية ليست بعلم إنها مشروع علمي.

وقدر لي أنأشاهدإعداد هذا المشروع وتقدمه خلال عشرين سنة تقريبا ما عدا السنوات الثلاث التي قضيتها كباحثة في المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق. كيف حدث ذلك؟ كنت طالبة في جامعة السوربون وقد حصلت في أواخر الستينات على الليسانس في الأدب العربي وقررت أن أدرس للحصول على الماجستير "إلى الأبد"للشاعر اللبناني الياس ابو شبكة. فنصحني أحد أساتذتي بأن أحضر حلقة غريماس الدراسية التي أصبحت معروفة في تلك الأيام في أوساط الاختصاصيين بالعلوم الإنسانية. فاتبعت نصيحة أستاذي وذهبت إلى المدرسة التطبيقية للدروس العليا حيث كان غريماس يلقي دروسه كل يوم الأربعاء. وفوجئت. فوجئت لأن هذه الحلقة الدراسية كانت مختلفة تماما عن كل ما حضرته من دروس من قبل. كان هناك مئتا شخص تقريبا من بينهم طبعا عدة طلاب مثلي ولكن الكثير من المشاركين في الحلقة كانوا أساتذة مختصين بالعلوم الإنسانية المتعددة- لغويين وفلاسفة واختصاصيين بعلم المعاني والأدب وعلم الاجتماع والتأريخ وعلم الأساطير

[1]GREIMAS, A.J., COURTES,J., *Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*, Paris, Hachette, 1979. Deuxième édition, Paris, Hachette, 1993.

وفن الرسم وفن الهندسة المعمارية إلىأخيره. ولاأتذكر ما كان موضوع النقاش في يوم الأربعاء ذلك إذأني كدت لا أفهم شيئا مما كان يدور حولي. إلاأني فهمت شيئا واحدا وهو أني كنت جاهلة جدا وأنه كان علي أن أقرأ وأحاول أن أفهم الدراسات والنظريات التي كان الأساتذة المشاركون في الحلقة يعتمدون عليها ويشيرون إليها في مناقشاتهم مع غريماس.

فقرأت كثيرا وأصبحت أفهم شيئا فشيئا أن مشروع غريماس بناء نظرية ومنهجية تمكناننا لا من تحليل علمي للغات والنصوص الأدبية فقط بل من تحليل علمي لأنساق الدلالات كلها. وسأذكر ببعضها على سبيل المثال: فالإيمائية لها معاني تختلف من حضارة إلى أخرى وقد تتنوع في مجتمع واحد من جماعة إلى جماعة وقد تكون لنفس الإيماءة معنيان مضادان كما هو شأن تحريك الرأس من فوق إلى تحت ومن تحت إلى فوق، تحريك معناه "نعم"في الحضارات الأوربية مثلا ومعناه "لا"في الحضارة الصينية. ويمكن القول نفسه عن الرقص الطقسي أو عن الأزياء والملابس بصفة عامة. أما المحسوسات التي تحيط بنا – طبيعية كانت أم صناعية أم فنية – فمعانيها تختلف بدروها من حضارة إلىأخرى كما أنه ترتسم من وراءها قيم إيجابية أو سلبية. فالماء والنار مثلا محسوستان موجودتان في كل الحضارات إلا أن المعاني والقيم المتعلقة بهما يمكن أن تكون مضادة. وبالإضافة إلى ذلك يحدث في كثير من الأحيان أن رؤية محسوسة ما تدفع بنا إلى أن نستنتج منها معلولها وبالتالي أن نعتبرها علة أو بالعكس أن نعتبرها معلولا ونستنتج منها العلة. فرؤية سحابة مثلا تجعلنا نستنتج أن السماء ستمطر عما قريب مما يجعل من السحابة العلة ومن المطر المعلول. ويشير ذلك كله إلى أن المعنى شبكة من العلاقات.

أما النظرية والمنهجية اللتان كان غريماس يريد أن يبنيهما كان عليهما أن تكون صالحتين لتحليل أنساق الدلالات مهما تكن وبالتالي كان من المبادئ التي راعاها كل المشاركين في المشروع:

أولا– التعاون بين الاختصاصيين بكل العلوم الإنسانية.

ثانيا – الانفتاح على نظريات العلوم الدقيقة بما في ذلك الرياضيات لنفهم الطريقة التي اتبعه الرياضيون في بناء نظرياتهم مما أدى بغريماس إلى أن يدعو مرة أو مرتين ريني توم (René Thom)- وهو رياضي مشهور نال وسام فيلدس المعروف – إلى المشاركة

في الحلقة الدراسية ليشرح لنا كيفية نهجه في بناء نظريته المعروفة بنظرية الكوارث.

ثالثا – الانفتاح على حضارات العالم كلها بقصد بناء نموذجية الحضارات مما دفعنا إلى قراءة دراسات كلود ليفي- ستروس (Claude Lévy-Strauss)،الاتربولوجي المشهور، في مجتمعات الهنود الحمر وأساطيرهم وإلى قراءة دراسات جورج دوميزيل (Georges Dumézil) في المجتمعات الهندية- الأوربية وأديانهاوأساطيرها ودراسات غريماس في أساطير ليتوانيا – وهو البلد الذي ولد فيه- و إلى قراءة آثاربشلارد (Bachelard) إلى أخره. مما أدى بي أنا في الثمانينات إلى دراسة العناصر الأربعة– الماء والنار والهواء والتراب – ووظائفها في القرآن الكريم وهي دراسة نشر جزء منها مع مقدمة كتبها غريماس في مجلة السيميائيين في باريس1 ثم نشرت بكاملها في دمشق2.

أما المبدأ الأهم فكان اللزام على تحقيق النظرية وترابطها من خلال دراسات تطبيقية حققتها مجموعات متعددة من الطلاب والأساتذة خارج حلقة غريماس الدراسية ثم عرضت فيها النتائج التي حصلت عليها أو الفشل الذي انتهت إليه. فشاركت أنا في المجموعة المخصصة لدراسات النصوص الأدبية وكان علينا في إحدى السنوات أن نحلل قصة قصيرة للكاتب الفرنسي Barbey d'Aurévillyعنوانها "أجمل حكاية حب لدون جوان" (Le plus bel amour de Don Juan) وهي قصه مبنية من البداية إلى النهاية على السخرية مما جعل التحليل صعبا جدا. وبما أن مجموعتنا لم تنجح في تحليلها قررت أن أحاول أنا تحليلها في أطروحتي الأولى التي نجحت في أن أبرهن فيها ميزة النص السخري بشكل عام وهي أن لنص مثل هذا دائما معنيان متناقضان. فترجمت نسخة مختصرة للأُطروحة إلى اللغة اللتوانية ونشرت في فيلنيوس3 حيث أُسس في أوائل التسعينات معهد غريماس المخصص إلى حد الآن للدراسات السيميائية.

[1] TOELLE, Heidi, « Les quatre éléments dans le Coran : l'Au-delà », *Nouveaux Actes Sémiotiques*, PULIM, Université de Limoges, No. 13, 1991.

[2]TOELLE, Heidi, *Le Coran revisité. Le feu, l'eau, l'air et la terre*, Institut français de Damas, Damas 1999.

[3] TOELLE, Heidi, *ApieNeapibreztuma, Barbey d'Aurevillynoveles « Graziausia Don Zuanomeile » analize*, Viliniausuniversitates, A.J. Greimo Centro Studijos, collection Semiotika, BaltosLankos, 1994.

أما بناء النظرية فتقدم شيئا فشيئا وأدى إلى ما سماه غريماس بالمسار التوليدي في محاولة إدراك جديد لعملية التدلال (Sémiosis). وكما تعرفون للمسار التوليدي ثلاثة مستويات : مستوى العمق مع بنيته الدلالية الأولية والمربع السيميائي ومستوى السطح حيث تتحول البنية الأولية إلى بنية سردية مع برامجها السردية المساعدة والرئيسية وبنية العاملين وأخيرا مستوى التمظهر حيث تتحول كل ذلك إلى شيء محسوس مثل خطاب شفهي أو نص أدبي أو لوحة أو رقصة إلى أخره. وافترض غريماس أن هذه المستويات متمفصلة بعضها ببعض وأنها متساوية فيما يخص المعنى. فتطلب هذا المسار التوليدي وضع قواعد تحويل تمكننا من إثبات هذا التساوي كما انه تطلب إعداد لغة واصفة وتحديد دقيق لمصطلحاتها وللعلاقات التي تربط بينها. وبالتالي كتب غريماس وكورتس(Courtès)معجم المصطلحات السيميائية الأول الذي أشرت إليه في بداية عرضي. وما إن نشر المعجم حتى بدأ غريماس وآخرون في الحلقة الدراسية يعتبرون أن النظرية والمنهجية ناقصتان واخذوا تسألون مثلا : ماذا عن العواطف ؟ كيف يمكننا أن نحلل الغضب والغيرة والبخل والتغيرات التي قد تحدثها هذه العواطف في سياق الحوادث المستقيم الخط في البرامج السردية مثلا. فأعاد غريماس والمشاركون في الحلقة يباشرون العمل ليصححوا النظرية والمنهجية مرة أخرى وليكملوهما فأدى ذلك إلى ما نسميه اليوم بالسيميائية-tensiveولا أعرف كيف أترجم هذه الكلمة إلى العربية – وإلى نشر معجم ثاني المصطلحاتالسيميائية في الثمانينات1. وأريد أن أُلحّ على هذه القابلية للنقد بل النقد الذاتي التي اتسم بها سيميائيو مدرسة باريس والتي منعت السيميائية من أن تتحول إلى نظرية ومنهجية جامدتين المطلوب من الطالب أو الباحث أن يطبقهما كما هما حتى ولو أجبره ذلك على أن يلفت النظر عن المشاكل التي قد عثر عليها وهو يحلل نصا أو نسق دلالات ما. وسمعت غريماس يقول مرات : "لو عثرنا على نص مقاوم للتحليل بواسطة نظريتنا لوجب علينا أن نغير النظرية ولا أن نغير النص". ولذلك ليست السيميائية بعلم كما قلت في بداية عرضي بل كانت وما زالت إلى حد الآن مشروعا علميا قابل للتغيرات.

[1] GREIMAS, A.J., COURTES, J., *Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage,* tome 2, Paris, Hachette, 1986.

وأخيرا ما هي النتائج المنهجية التي نجمت عن كل ذلك فيما يخصني أنا وموقفي من الحضارات العربية وتناولي للأدب العربي كلاسيكيا كان أم معاصرا؟

أساتذتي المستشرقون لم يطلبوا منا الطلاب في ذلك الوقت أن نقوم بتحليل دقيق للنص الأدبي ولكن أن نشرحه. والمطلوب أولا أن نتحدث قليلا أو كثيرا حسب الظروف عن حياة الكاتب المعني وآثاره. ثم أن نستخرج من النص الفكر الرئيسية وننظمها وأن نقول ما هو في رأينا هدف الكاتب. فأدى ذلك في كثير من الأحيان إلى التعبير عن قناعات ذاتية وأفكار شخصية بعضها منسجمة مع النص والبعض الآخر متناقضة معه. أما السيميائية فساعدتني في أن أقف من النصوص موقفا موضوعيا وأن أحاول أن أحللها بدقة وأن لا أجعلها تقول ما لا تقول. أما فيما يخص الحضارة العربية فانفتاح غريماس والسيميائيين على حضارات العالم كلها فحثني على احترام هذه الحضارة بدلا من أنأقف منها موقف الاحتقار. فأصبح من المستحيل أن أكتب مثلا : "إن العرب محرومون من عبقرية الإبداع"[1]كما كتب الأستاذ شارل بلات (Charles Pellat) في خاتمته لكتابه "لغة العربوأدبهم" (Langue etlittératurearabes) الذي نشر سنة 1952. وقد يكون ذلك الاحترام من أهم النتائج المنهجية التي نجمت عن مشاركتي في حلقة غريماس الدراسية.

[1]« [...]les Arabes sont dépourvus de génie inventif [...] » dans PELLAT, Charles, *Langue et littérature arabes,* collection Armand Colin, Paris, 1952, p. 219.